الفصل السادس

فى فارس وروسيا وتركيا

أخـذ جمال الدين ينتقل بين باريـس ولندن إلى جمادى الأولى سنة ١٣٠٣هـ (أوائل فبراير سنة ١٨٨٦م).

فى فارس

ثم استدعاه ناصر الدين شاه فارس فلبى الدعوة وقصد إلى طهران فاسـتقبله الشـاه بصدر رحب، وأثنى على فضله وجعله مستشاره الخـاص فى إصلاح شـئون بلاده، فـكان له نعم المرشـد الأمين، وكانت لهجته صريحة كعادته فى نصح الشاه، وأشار عليه بتغيير كل شأن معيب من شئون الحكومة، وقال بضرورة اشتراك الأمة فى الحكم، على أن الشاه لم تألف نفسه إقامة الشورى فى بلاده، فتنكر لجمال الدين إذ رآه ميالاً إلى إقامة النظم الدستورية.

ولما أدرك جمال الدين تغير الشاه استأذنه فى السفر فأذن له.

فى روسيا

فذهب إلى روسـيا وزار عواصمها، فاسـتقبله الخاصة بالتجلة والاحترام لما سـمعوه من مكانته، وكتب عدة مقالات فى الصحف الروسـية وكانـت لهجته معبـرة فى إظهار دسـائس السياسـة الإنجليزية.

وقد دعاه القيصر لمقابلتـــه، واحتفى به كثيرًا، على أن القيصر فى خلال حديثه معه ســأله عن سبب اختلافه مع الشاه، فذكر له رأيه فى الحكومة الشــورية وأن الشــاه لا يشاطره رأيه فيها وينفر منها، ولم يكن القيصــر أيضا يقبل هذا النوع من الحكم فقال: «إنى أرى الحق فى جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته؟».

فلم يســكت جمــال الدين على كلام القيصــر، وأجابه فى جرأة وفصاحة: «أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون الملايين من رعيته أصدقائه من أن يكونــوا أعداء يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور ســموم الحقد والانتقــام»، فبهت القيصر من هذا الرد، وعلت وجهه علامة الغضب وقطب حاجبيه، ولم يطل الحديث بعد ذلك بل قام من مجلســه إيذانًا بانتهاء المقابلة، وودع جمال الدين بغير الشكل الذى استقبله به، إذ كان وداعًا فاترًا ثم أوعز إلى كبار رجال حاشيته أن يسرعوا متلطفين لإخراجه من روسيا.

فى فارس مرة أخرى

تــرك جمال الدين روســيا.وأخذ يتجول فى أوروبــا. ولما كان معرض باريس العام ســنة ١٨٨٩م رجع جمــال الدين إليها، وفى عودتــه منها التقى بالشــاه فى ميونخ عاصمــة بافاريا، فاعتذر له عمــا فرط منه ودعاه إلى صحبتــه إذ كان يرغب فى الانتفاع بعلمه

وتجاريبه، فأجاب الدعوة، وسار معه إلى فارس، وأقام فى طهران، فحفه علماء فارس وأمراؤها وأعيانها بالرعاية والإجلال.

واستعان به الشاه على إصلاح أحوال المملكة وسن لها القوانين الكفيلة بإصلاح شئونها، فعمل بجد فيما عهد إليه ووضع مشروع دستور لفارس يجعلها ملكية دستورية، ولكنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ فى الحكومة، وخاصة الصدر الأعظم، فوشوا به عند الشاه، وأسر إليه الصدر الأعظم أن هذه القوانين وخاصة الدستور تؤول إلى انتزاع السلطة من يده، فأثرت الوشايات فى نفس الشاه، وبدأ يتنكر للسيد، ولما اطلع على مشروع الدستور هاله الأمر حين رأى أن حكمه سيكون مقيدا وأن المجلس النيابى الذى يفرضه الدستور سيجعل الأمة أوسع سلطانًا من الشاه، فقال لجمال الدين: «أيصح أن أكون يا حضرة السيد وأنا ملك ملوك الفرس (شاهنشاه) كأحد أفراد الفلاحين؟» فقال جمال الدين: «اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستورى أعظم وأنفذ وأثبت مما هى الآن، واسمح لإخلاصى أن أؤديه صريحا قبل فوات وقته، لا شك يا عظمة الشاه أنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون أن يكون على رأسها ملك، ولكن هل رأيت ملكا عاش بدون أمة ورعية؟».

جاء هذا الحديث مصدقا لما وشى به الصدر الأعظم لدى الشاه فنفر من جمال الدين نفورًا شديدًا، وأحس بهذا التعبير فى موقف

الشـاه حياله، فاسـتأذن فى المسـير إلى المقام المعروف (بشـاه عبد العظيم) على بعد عشرين كيلو مترا من طهران، فأذن له، فوافاه بـه جم غفير من العلماء والوجهاء مـن أنصاره فى دعوة الإصلاح، فازدادت مكانته فى البلاد، وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه، فاعتزم الإساءة إليه، ووجه إلى (شاه عبد العظيم) خمسمائة فارس قبضوا عليه، وكان مريضًا، فانتزعوه من فراشه، واعتقلوه، وساقه خمسون منهم إلى حدود المملكة العثمانية، فنزل بالبصرة، فعظم ذلك على مريديه، واشتدت ثورة السِخط على الشاه.

دعوة جمال الدين ضد الشاه

أقام السيد بالبصرة زمنًا حتى أبل من مرضه، ثم أرسل كتابًا إلى كبير المجتهدين فى فارس ميرزًا محمد حسن الشيرازى، عدد فيه مساوئ الشـاه، وخص بالذكر تخويله إحدى الشركات الإنجليزية حـق احتكار التنباك فى بلاد فارس، وما يفضى إليه من اسـتئثار الأجانب بأهم حاصلات البلاد، وكان هذا النداء من أعظم الأسـباب التى جعلت كبير المجتهدين يفتى بحرمة استعمال التنباك إلى أن يبطل الامتياز، فاتبعت الأمة هذه الفتوى، وأمسكت عن تدخينه، واضطر الشـاه خـوف انتفاض الأمة إلـى إلغائه، ودفع للشـركة الإنجليزية تعويضًا، فخلصت فارس وقتئذ من التدخل الأجنبى.

شخوصه إلى أوربا

مكث جمال الدين بالبصرة ريثما عادت إليه صحته، ثم شخص إلى لنـدن، فتلقـاه الإنجليز بالإكـرام، ودعوه إلـى مجتمعاتهم السياسية والعلمية، وحمل على الشاه وسياسته حملات صادقة فى مجلة سـماها (ضياء الخافقين)، ودعا الأمة الفارسـية إلى خلعه، وقويت دعوة الحرية فى إيران، واشـتد السـخط على الشـاه ناصر الدين إلى أن قتل سـنة ١٨٩٦م بيد فارسـى أهوج، وقيل إن للسيد دخلا فى التحريض على قتله، وتولى بعده مظفر الدين، واستمرت دعوة الحرية التى غرسـها جمال الدين فى إيـران تنمو وتترعرع حتى آلت إلى إعلان الدستور الفارسى سنة ١٩٠٦م.

ذهابه إلى الآستانة وإقامته بها

وفيما هو بلندن ورد عليه كتاب من المابين الهمايونى[1] بواسطة رستم باشا سفير تركيا بدعوته إلى الآستانة، فاعتذر أولا، ثم ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته فلبى الطلب، وذهب إلى الآسـتانة سنة ١٨٩٢م.

وكانت هـذه هى المرة الثانيـة لوروده هـذه المدينة، والمرة الأولى كانت فى عهد السلطان عبد العزيز كما تقدم بيانه.

(١) السراى السلطانية.

وقد يبدو غريبًا أن السلطان عبد الحميد الذى كان نصيرًا للاستبداد وخصما للحرية، يدعو إلى جواره أكبر زعيم للحرية فى الشرق، وأغلب الظن أنه أراد أن يخدم سياسته فى الجامعة الإسلامية باستضافته فيلسوف الإسلام، لكى يظهر للعالم الإسلامى أنه يرعى العلم والعلماء من الأمم الإسلامية كافة، ومن ناحية أخرى فإن تركيا كانت هدفا للمطامع الاستعمارية وكانت تحاربها. فبديهى أن رائد التحرر من الاستعمار يرحب بزيارة الآستانة لعله يتخذ منها قاعدة لمحاربة الاستعمار، ولو أن تركيا قرنت هذه الدعوة بإقامة دعائم الشورى فى بلادها وإصلاح ما فسد من شئون الحكم واعترفت للعرب بحقوقهم ووقفت حيالهم موقفًا كريمًا، لتغير مركزها ولصارت أكثر صمودًا للحملات الاستعمارية الأوربية.

وقد لبى جمال الدين دعوة السلطان، آملا أن يرشده إلى إصلاح الدولة العثمانية، لأن مقصده السياسى هو إنهاض دولة إسلامية أيا كانت إلى مصاف الدول العزيزة القوية، فسار إلى الآستانة لتحقيق هذا المقصد، وحفه عبد الحميد بالرعاية والإكرام، وأنزله منزلاً كريمًا فى قصر بحى (نشان طاش)، من أفخم أحياء الآستانة، وأجرى عليه راتبًا وافرًا، قيل إنه خمس وسبعون ليرة عثمانية فى الشهر.

ومضت مدة وجمال الدين له عند السلطان منزلة عالية، ثم ما لبث أن تنكر له، وأساء به الظن، إذ كان من أحض صفات عبد الحميد

إساءة الظن بالناس كافة، وخاصة بمن يتصلون به، والإستماع إلى الوشايات والدسائس، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى نال الحظوة الكبرى عند مولاه يكره أن يظفر أحد بثقته، فوشى بالسيد عند السلطان وأوغر عليه صدره فأحيط السيد بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته ويرقبون حركاته وسكناته.

وقيل إن من أسباب استماع عبد الحميد لوشايات الواشين أن السيد جمال الدين التقى مرة بالخديو عباس حلمى الثانى خديو مصر إذ كان يرغب عباس فى مقابلته لما كان يسمعه وهو على الأريكة الخديوية عن فضل الفيلسوف الأفغانى، فلما طلب مقابلته كان جوابه: إنه لابد لذلك من إذن السلطان. فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المابين، فكانوا يرجئون ويسوفون فى الجواب، وبينما كان جمال الدين جالسا فى المنتزة المعروف (بالكاغدخانة) بالآستانة فى أصيل أحد الأيام جاء الخديو عباس حلمى وحياه وجلس وإياه يتحدث إليه، فطار الجواسيس إلى السلطان بالخبر، فأرسل يستدعيه إليه ولما لقيه قال: أتريد أن تجعلها عباسية؟ يشير إلى الخلافة. فقال جمال الدين: «إن بنى العباس قد انقرضوا. وبنى على أولى» . ولم يكن يعتقد أن السلطان يقصد عباس حلمى فى حديثه.

فبمثل هذه الأوهام كان الجواسيس يوسوسون للسلطان ويوغرون صدره على جمال الدين.

وقد ذكر الأمير شـكيب أرسلان فى هذا الصدد فى كتاب «حاضر العالم الإسلامى»[1] أن السـيد كان وعبد الله نديم الكاتب والخطيب المصرى المشهور فى متنزه (الكاغدخانة) ، فصادفا الخديو عباس حلمى وسـلم بعضهـم على بعض وتحادثوا نحو ربع سـاعة تحت شـجرة هناك، فقيل إن الشـيخ أبا الهدى قدم تقريرا للسلطان بأن جمـال الدين وعبـد الله نديم تواعدا مع الخديـو على الاجتماع فى (الكاغدخانة)، وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة، ويقول الأمير شكيب: إن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشـاية[2]، ولكنا نميل إلى الاعتقاد أنها تركت أثرًا فى نفسـه، وغيرت قلبه على السيد.

وذكر أن الذى أدى إلى وحشة السلطان منه استمراره فى مجالسه على القدح فى شـاه العجم ناصر الدين، مما حمل سـفير إيران على الشكوى منه إلى السلطان، فاستدعاه، وطلب إليه الكف عن مهاجمة الشـاه، فقبل، وكان فى يده حين قابل السلطان سبحة. فجمعها فى كفه وقال بصوت جهورى: «امتثالاً لإشارة أمير المؤمنين فإنى من الآن قد عفوت عن الشـاه ناصر الدين». فدهش عبد الحميد من هذا الجواب وقال له «بحق يخاف منك الشاه خوفاً عظيماً».

---

(١) تأليف المسـتر سـتودارد الأمريكى وتعريب الأسـتاذ عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات قيمة للأمير شكيب أرسلان.

(٢) حاضر العالم الإسلامى جـ ١ ص ٢٠٣.

وخرج جمال الدين من حضرة السلطان إلى حجرة رئيس الأمناء فقال له بلطف «يا حضرة السيد إن إجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل. واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة في حضرته».

فقال جمال الدين «سبحان الله إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة، وليس من يعترض منهم، أفلا يكون لجمال الدين حق في أن يلعب بسبحته كيف يشاء؟» فترك رئيس الأمناء حجرته مهرولاً خائفاً من كلام جمال الدين.

وكان يخاطب السلطان بشجاعة لا يستطيع غيره أن يقلده فيها، ولم يدخر وسعًا في تحذيره من الخونة من رجاله حتى قال له يومًا: «يا جلالة السلطان مللت من تعاطينا الشكاية، ومن غيرك صاحب الأمر؟ خذ بحزم جدك محمود وأقص الخائنين من خاصتك الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا والعمال في الولايات، خفف الحجاب عنك واظهر للملأ ظهورًا. يقطع من الخائنين الظهور. وأعتقد أن نعم الحارس الأجل».

وعند ذلك تنفس السلطان الصعداء وقال «ذكرتني بعهد جدي محمود. وما أبعد الفرق بين محيطي ومحيطه، من حالة أوربا في زمانه وحالتها اليوم، بين رعيته والرعية اليوم».

ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦م فاشتدت الريبة في جمال الدين، واتجهت إليه شبهة التحريض على قتله، فأمر

السلطان بتشديد الرقابة عليه، ومنع أى أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية، فأصبح السيد محبوسًا فى قصره.

مرضه ووفاته

تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية، فإن اتهامه بالتحريض على قتل الشاه، وتغير السلطان عبد الحميد عليه، وحبسه فى قصره، ووشايات أبى الهدى الصيادى». مما يقرب إلى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة، هذا إلى أن الغدر والاغتيال كانا من الأمور المألوفة فى الآستانة.

وأصدق الروايات وأحقها بالثقة فيما نعتقد، ما ذكره الأمير شكيب أرسلان فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى)، قال ما خلاصته: «إنه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل مستشار السفارة الإنجليزية يطلب منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الآستانة، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك، فلما بلغ السلطان الخبر أرسل إليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته إلى هذا الحد، ولا يلتمس حماية أجنبية، فثارت فى نفسه الحمية والأنفة، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر، ومهما كان فليكن، ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى فمه مرض السرطان، فصدرت الإرادة السلطانية بإجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبور زاده إسكندر باشا

كبير جراحي القصر السلطاني، فأجرى له العملية الجراحية، فلم تنجح، وما لبث إلا أيامًا قلائل حتى فاضت روحه، ومن هنا تقول الناس في قصة هذا السرطان، وهذه العملية الجراحية لقرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد، وما كان معروفًا من وساوس عبد الحميد، فقيل إن العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنا، بحيث انتهت بموت المريض[1].

وذكر الأمير شكيب أن المستشرق المعروف الكونت (لاون استروروج) حدثه أن المترجم كان صديقه، فدعاه إليه بعد إجراء العملية الجراحية، وقال له إن السلطان أبى أن يتولى العملية إلا جراحه الخاص، وأنه هو رأى حال المريض ازدادت شدة بعد العملية، ورجا منه أن يرسل إليه جراحًا فرنسويا مستقل الفكر، طاهر الذمة، لينظر فيعقب العملية، فأرسل إليه الدكتور (لاردى)، فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة، وأن المريض قد أشفى بسبب ذلك، وعاد إلى استروروج، وأنبأه بهذا الأمر المحزن، ولم تمض أيام حتى فارق جمال الدين الحياة.

وذكر واحد ممن كانوا في خدمة عبد الحميد، بعد أن روى له الأمير شكيب هذه القصة، أن قمبور زاده إسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الجريمة، وحقيقة الواقعة أنه كان

---

(١) حاضر العالم الإسلامي جـ ١ ص ٢٠٤.

بالآستانة طبيب أسنان عراقى اسمه (جارح)، يتردد كثيرًا على جمال الدين، ويعالج أسنانه، وكانت نظارة الضابطة (إدارة الأمن العام) قد استمالت (جارح) هذا بالمال، وجعلته جاسوسا على السيد، وصار له عدوًّا فى ثياب صديق، وقال صاحب هذه الرواية إنه أراد مرة أن يمنع الطبيب المذكور من الاختلاط بجمال الدين، فأشار إليه ناظر الضابطة إشارة خفية، بأن يتركه، وفهم من الإشارة أنه يذهب إلى السيد، ويعالج أسنانه، بعلم من النظارة، والسيد لا يعلم بشىء من ذلك، ويطمئن إلى (جارح) ويثق به، ولم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه حتى ظهر السرطان فى فك السيد من الداخل، وأجريت له عملية جراحية، فلم تنجح، وجارح هذا ملازم للمريض، وبعد موته كانوا يرونه دائمًا حزينًا كئيبًا، يبدو على وجهه الوجوم والخزى، مما جعلهم يشتبهون أن يكون له يد فى إفساد الجرح بعد العملية، أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل، ولما مات السيد بدأ الندم على الطبيب الأثيم وشعر بوخز الضمير يؤنبه على خيانته هذا الرجل العظيم.

وكانت وفاته صبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧م، وما إن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقيًا عنده، وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال فى مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش، فدفن كما يدفن أقل الناس شأنًا فى تركيا، وظل قبره هناك إلى نقل رفاته إلى أفغانستان سنة ١٩٤٤م.